الكوميديون المسلمون في أمريكا..
سخرية منا أم لأجلنا؟!

مع أن الصورة التي يحرص الأمريكيون على ترويجها في العالم هي قيام أمتهم على مبادئ الحرية والديمقراطية، وقوة القانون في حماية حق الأقليات والأعراق في المساواة مع الجميع، فإن الحقيقة التي لا يمكنهم نفيها هي عدم سيادة هذه المبادئ المثالية على الثقافة العامة في المجتمع الأمريكي، إذ تبقى في معظمها مجرد شعارات وقواعد أخلاقية وقانونية بعيدة عن التطبيق، خصوصاً عندما يتعلق الأمر بالتمييز ضد السود والمسلمين، بل يؤمن الكثير من الأمريكيين بأنه يجب على المهاجرين اللجوء إلى الكوميديا إذا ما أرادوا حقاً تدريب الأمريكيين على نبذ العنصرية.

أدرك الكثير من المهاجرين صحة هذه القاعدة ونجاعتها، وطبقوها بنجاح في فترات مختلفة من القرن العشرين، وكان للكوميديين السود على وجه الخصوص دور كبير في لفت أنظار المجتمع إلى قضاياهم في عقدي الستينيات والسبعينيات، حتى تمكنوا بالفعل من الحصول على تأييد الكثير من البيض لحقوقهم المدنية، فلمعت حينذاك أسماء كل من ديك غريغوري، ريتشارد بريور، صموئيل ريد وبيل كوسبي. ويدعم البروفسور (جاك شاهين) من جامعة إيلينوي الرأي القائل بالدور الكبير للفكاهة في إعادة النظر في الصور النمطية فيقول: «لا أعتقد أنك ستبدّل تفكيرك فجأة خلال مشاهدتك للعرض، ولكنك عندما تغادر وتسمع الروايات الإخبارية

فيما بعد، سيظهر لك لاحقًا صحة بعض ما تبيّن في ذلك العرض، وعندها يُعيد الناس التفكير بالأمور»، كما يُنقل عن الكوميدي الراحل المعروف (بيتر أوستينوف) قوله: «إن الناس يأتون دائماً إلي بعد نهاية العرض ليقولوا لي: شكراً جزيلاً لك لأنك جعلتنا نفكر».

وبعد تعرض المسلمين لواحدة من أكبر حركات الاضطهاد في التاريخ الأمريكي إثر هجمات أيلول/ سبتمبر، لجأ بعض الشباب الموهوبين من ذوي الأصول الإسلامية إلى (الكوميديا) وسيلةً لإيصال صوتهم إلى المجتمع. يقول الكوميدي مصري الأصل (**أحمد أحمد**): «لا يمكننا أن نعرّف بأنفسنا بالطرق الجادة لأنه لن يسمعنا أحد، فالطريقة الوحيدة للقيام بذلك هي أن نأخذ الأمر بطريقة هزلية»!

وفي عام ٢٠٠٧؛ عُرض على العديد من القنوات الأمريكية فيلم وثائقي بعنوان (**الكوميديون الأمريكيون المسلمون ينهضون**/ Muslim American Comics Come of Age) صُورت فيه تجارب وحياة خمسة كوميديين مسلمين أمريكيين من أصول شرقية؛ وهم المصري **أحمد أحمد**، الإيرانية **تيسا هامي**، الهندي **أزهر عثمان**، والفلسطينيان **دين عبيد الله وميسون زايد**.. وهم جميعاً أمريكيو المنشأ والولادة، ويمكن القول بأن هؤلاء الخمسة هم من أكثر الكوميديين المسلمين شهرة في أمريكا اليوم، وتقوم مهنتهم في الأساس على تقديم النكات والمواقف المضحكة في المسارح والنوادي الليلية، وفقاً لما يسمى في الولايات المتحدة بالكوميديا الإلقائية (Stand up comedy).

قد يبدو الدافع الذي أعلنه معظم أو جميع هؤلاء الكوميديين لاعتلاء المسرح في غاية النبل، فهم يحملون بذلك راية الدفاع عن الحقوق الإنسانية والقانونية لملايين المسلمين في أمريكا، بل يفتحون الباب أمام

المجتمع الأمريكي للاقتراب من الإسلام وطرح الأسئلة بجدية أكبر، ولكن صحة هذه الدوافع والطرق التي يسلكها بعض أولئك الشباب تحتاج إلى تحقيق، فبعض النكات تبدو مؤلمة حقاً للكثير من المسلمين الذين لا يستسيغون هذه السخرية اللاذعة، كما لا يبعد أن يستغل بعض الكوميديين تلك الموجة لاعتلاء سلم الشهرة وجني المال على حساب غيرهم!

كوميديات مسلمات.. ولكن!

في إحدى نكاتها الساخرة تقول **ميسون زايد**: «أنا ما زلت عذراء، بملء إرادتي.. [ثم تستطرد] وبإرادة والدي أيضاً»!.. ويضحك الجمهور الأمريكي ساخراً، في حين تقول ميسون أمام الكاميرا في الفيلم الوثائقي سالف الذكر: إنها لم ترغب بارتداء الحجاب في أمريكا، وإن والدها قد احترم رغبتها تلك، لذا ظهرت على الشاشة بملابس قصيرة جداً، ولم يمنعها ذلك فيما يبدو عن تمثيل الفتاة المسلمة والدفاع عنها وفقاً لمفاهيمها الخاصة!

ومع أنها أصيبت بشلل دماغي جزئي فقد حصلت ميسون على درجة البكالوريوس في التمثيل وقدمت عروضاً في مسارح عديدة في الكثير من الولايات الأمريكية، ثم انتقلت لتقديم عروضها في المناطق التابعة للضفة الغربية وبعض المدن المحتلة مثل الناصرة، حيفا، بيت لحم، رام الله، والقدس.

أما الكوميدية الإيرانية (**تيسا حامي**)، التي تعيش مع والديها المهاجرين من إيران، فقد اختارت وضع الحجاب على رأسها في أثناء ظهورها على المسرح لإضفاء بعض المصداقية، ومع اعترافها بأن والديها غير متدينين، حيث تنقل في إحدى نكاتها عن أمها أن جدها عالم الدين «سيتقلب في قبره لو عرف أن حفيدته كانت على خشبة المسرح تتحدث عن السحاقيات»، إلا أنها تحرص على استشعار معاناة المسلمات المحجبات

في أمريكا -حتى إن سخرت من حجابهن- إذ صعدت على خشبة مسرح نادٍ كوميدي في بوسطن في إحدى ليالي آب/أغسطس ٢٠٠٤ وهي ترتدي بنطالاً أسود ومعطفاً أسود يصل إلى الفخذ مع غطاء للرأس، ثم حدقت في الجمهور وقالت: «كان ينبغي عليّ حقاً أن أرتدي معطفاً طويلاً"، ثم أضافت: "غير أني شعرت بنوع من الفسق اليوم»!

مواقف ساخرة أخرى تتكرر مع الكوميدية إيرانية الأصل (**نيفين فارساد**)، التي قدمت في مهرجان نيويورك الدولي الثانوي للفنون عام ٢٠٠٤ عرضاً ساخراً تحت اسم (Bootleg Islam)، وهو العرض الذي أشارت إليه صحيفة (وول ستريت جورنال) على غير عادتها، إضافة إلى اهتمام صحيفة (نيويورك صن) به في تحقيق أجرته عن المسرح السياسي، علماً بأن عرض (نيفين) لا يكاد يتعرض للسياسة، فمعظم اهتمامها منصب على استلهام المواقف المثيرة للسخرية من عائلتها بوصفها نموذجاً للعائلة المسلمة، كالسخرية من ابنة عمتها العذراء الساذجة والبالغة من العمر ثلاثة وعشرين عاماً والتي تحلم برؤية زوجها عارياً في ليلة زفافها!

الأمر نفسه يتكرر مع فتاة أخرى وجدت في عائلتها المتدينة مادة غنية بالنكات المثيرة لضحك الأمريكيين، فعندما بدأت (**شازيا ميرزا**) الظهور على المسرح كانت ترتدي الحجاب، ومع أنها خلعته لاحقاً فهي تزعم أنها متدينة جداً، ويُذكر أن وسائل الإعلام الأمريكي منحتها فرصاً للشهرة أكثر من معظم زميلاتها مثل صحيفة (نيويورك تايمز) وبرنامج (60 Minutes) على شبكة (CBS)، وهو ما يمكننا تفهمه عندما نستمع إلى بعض نكاتها، إذ تقول في إحداها: «اسمي شازيا ميرزا.. هذا ما تقوله على الأقل رخصتي لقيادة الطائرات».. علماً بأن أمثال هذه النكات لم تطلقها (ميرزا) إلا بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر بفترة قصيرة.

أما عن عائلتها الباكستانية المقيمة في بريطانيا فتقول (شازيا): «يسألني الناس لماذا تمشي أمي خلف والدي بخمس خطوات، وأنا أقول: حسناً منظره أجمل من الخلف»، في حين تخصص بعض سخريتها لمعتقدات المسلمين نفسها حين تروي قصة تعرضها لقرصة خفية في أثناء زيارة لها إلى مكة المكرمة قائلة: «لا بد أنها كانت يد الله»!

أما الموقف الأكثر غرابة فهو قرار (ميرزا) التي كانت معلمة فيزياء في مدرسة بريطانية نزع حجابها عندما أخبرها أصحاب النوادي الليلية أن نكاتها باتت قديمة وتحتاج إلى بعض التجديد! وكما هي العادة في مثل هذه المواقف، سارعت (ميرزا) إلى التصريح بأن الحجاب لا علاقة له بالأخلاق، فأخلاقها لم تتغير بعد نزع غطاء رأسها، كما أبدت انزعاجها ممن يتهمها باستغلال حجابها وتدينها في الماضي لمكاسب شخصية.

ومن الجدير بالذكر أن (ميرزا) تخلت فيما بعد عن النكات السياسية وقصرت اهتمامها على تقاليد عائلتها المتدينة، وخير ما يلخص هذا التحول في الاهتمام بقضايا المسلمين الكبرى ومعاناتهم إلى مجاراة الغرب في ترسيخ الصورة السلبية التي كان من المفترض بهؤلاء الكوميديات أن يحاربنها فسنجده في اعتراف ميسون زايد التي تقول: «لا يتعلق الأمر بالعِرق.. إنه يتعلق بكوننا نساءً»!

فرقة ملتزمة.. وتعتيم إعلامي!

أزهر عثمان بدا مختلفاً بهيئته المثيرة للجدل، فقد كان هذا الشاب - وهو محام وأستاذ جامعي أمريكي من أصل هندي- متعاطفاً مع الفكر المتطرف، ولكنه -حسب قوله- اكتشف خطأ هذا التوجه ومال نحو الاعتدال، ومع ذلك فلم يتخلّ أزهر عن مظهره التقليدي، وهو لا يخشى الظهور في ملابسه وقبعته الباكستانية ولحيته الطويلة في الشوارع الأمريكية وبرفقة زوجته المحجبة.

بدأ أزهر طريقه نحو الكوميديا عام ٢٠٠٤، ونجحت نكاته في لفت الأنظار إلى ما يعانيه المسلمون من سوء الفهم والإدانة المسبقة، ففي العرض المسمى (**الله خلقني مضحكاً**) صعد على خشبة المسرح وقال للجمهور بالعربية: «السلام عليكم»، ثم استطرد: «إذا كنتم لا تعرفون معنى هذه الجملة فسأترجمها لكم.. إنها تعني: سوف أقتلكم».. وانفجر الجمهور ضاحكاً.

ثقة (أزهر) بدينه وثقافته تعطيه الكثير من المصداقية فيما يقول، وتضفي على نكاته مسحة من الجدية التي يتحلى بها المؤمنون بقضيتهم، ففي إحدى نكاته نجده يقول: «لقد حققنا الكثير من التقدم في سبيل التخلص من العنصرية في الولايات المتحدة، فالرجل الأسود ما زال يشكو من عدم حصوله على محاكمة عادلة في أمريكا».. ثم يتابع: «أما المسلم فإنه يشكو من عدم حصوله على محاكمة من الأساس»!

وفي نكتة أخرى يتحدث (أزهر) عن شاب مسلم يتابع أسماء الممثلين والفنيين التي تظهر في الشارة النهائية لأحد أفلام هوليود، ثم يجد اسماً عربياً مدرجاً في القائمة فينتفض ويهلل من شدة الفرح وهو يقول: أخيراً لقد بدأ المسلمون بغزو هوليود!.. كما سخر في إحدى المرات من موقف الأمريكيين منه عندما يصعد إلى الطائرة، فما إن يضع قدمه في المطار حتى تلاحقه النظرات من كل الجهات، وبمجرد وصوله إلى الطائرة يدب الرعب في قلوب الركاب، حتى إذا هبطت بسلام في نهاية الرحلة يبادله الجميع نظرات الاعتذار مع ابتسامات حمقاء!

يشارك (أزهر)، الذي درس الشريعة الإسلامية في القاهرة، في فرقته المسرحية زميلان آخران وهما: الأمريكي من أصل فلسطيني **محمد عامر**، والشاب الأسود المثقف (**بريانت ريجينالد موس**) الذي غيّر اسمه إلى (**بريتشر موس**) بعد اعتناقه الإسلام قبل عشرين سنة ويُعرف اختصاراً باسم (الداعية موس)، واشتهر (موس) منذ سنوات طويلة بخبرته في العمل مع

فرق كوميدية إفريقية ولاتينية ويهودية كافحت للمطالبة بحقوق الأقليات، كما ظهر في برامج تلفزيونية أمريكية شهيرة مثل (ساتردي نايت) و(دايمون واينز) و(جورج لوبيز)، في حين يصرح محمد عامر بأن الفرقة استمدت فكرة تأسيسها من (**منكّت الرسول**) الصحابي الجليل نعيمان الأنصاري[١].

وتركز هذه الفرقة نقدها على ما يتعرض له المسلمون من الاضطهاد على وجه الخصوص، كما تتعرض لبعض وجوه الخلل في طريقة فهم المسلمين للكثير من الأمور دون تجريح، ومع ذلك فقد تعرضت لنقد بعض الجاليات المسلمة في الغرب حتى مُنعت من تقديم حفلتها في إحدى جامعات بريطانيا، في الوقت الذي تُفتح فيه الأبواب على مصاريعها أمام الكوميديين الآخرين الذين يتخذون من إسلامهم وأصولهم الشرقية مادة للسخرية.

ولعل هذا ما يفسر عدم حصول الفرقة على القبول الكافي لدى الإعلام الأمريكي، فاشتراط الفرقة في معظم الأحيان عدم تقديم الخمر خلال العرض، وظهور أعضائها في هيئة إسلامية، واستنادهم إلى خلفية ثقافية وحقوقية في نكاتهم اللاذعة، هي أمور لا تنال إعجاب الكثيرين حتى لو قاموا بتمريرها تحت ذريعة الكوميديا.

اكتشفت فجأة أني عربي!

في المقابل، نجح كوميديون آخرون من أصول عربية ومسلمة في نيل إعجاب الأمريكيين على طريقتهم، ومن أشهرهم الكوميدي (**دين عبيد الله**/ Dean Obeidallah)، المتحدر من أب فلسطيني وأم إيطالية ويحمل الجنسية الأمريكية، والذي أبدى ارتياحه مع اسمه الأول (Dean) لكونه

(١) موقع العربية نت، بتاريخ ٣ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٨م.

لا يُظهر هويته العربية، ولكنه أصبح يتذمر مؤخراً من اسمه الثاني (عبيد الله)، لذا فهو يُسارع في بعض عروضه إلى إخبار جمهوره بأنه كان مجرّد شاب أبيض يعيش حياة شاب أبيض من نيوجيرسي، وعندما وقعت أحداث ٩/١١ أصبح فجأة: عربياً!

كان (دين) يعمل محامياً ثم انتقل إلى التحرير في شركة إعلامية، ومع أن دخله كان جيداً لم يرغب في الاستمرار؛ إذ لم يجد ما يحقق طموحه إلا في الكوميديا، فبدأ بتقديم النكات في نوادي نيويورك دون الإشارة إلى أصله العربي مستفيداً من مظهره الأمريكي، وعندما وقعت أحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر ظل حريصاً على إخفاء هويته، ولكنه وجد بعد عدة شهور أنه من المناسب استغلال أصوله العربية، وواصل نجاحه حتى حصل في عام ٢٠٠٥ على الجائزة الأولى لمسابقة (روح بيل هيكز) الكوميدية.

وفي تجربة أخرى؛ احتضنت مالكة أحد أشهر نوادي الكوميديا الإلقائية (ميتزي شور) سنة ٢٠٠٠ ثلاثة شباب شرقيين لتأسيس فرقتهم الكوميدية مطلقة عليهم اسم (**الفرسان العرب**/ The Arabian knights)، وقدمت لهم فرصة جيدة للولوج إلى عالم الشهرة، فقد انطلق من هذا النادي الشهير عدد من كبار ممثلي هوليود الكوميديين، مثل (روبين ويليامز) و(جيم كاري).

وبعد أحداث أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ حوّل أعضاء الفرقة الثلاثة نشاطهم أيضاً إلى السخرية من أوضاع المسلمين، ومما يتعرضون له من اضطهاد، بعد أن أدى بعضهم أدواراً في أفلام هوليودية تكرس الصورة المعروفة للمسلم الإرهابي!.. وفي العام ٢٠٠٥ حوّل هؤلاء الشباب اسم فرقتهم إلى فرقة (**محور الشر**) الكوميدية (The Axis of Evil)، وبدؤوا بتقديم حفلاتهم في العديد من المدن داخل الولايات المتحدة وخارجها.

اشتهر عضو هذه الفرقة **أحمد أحمد**؛ مصري المولد وأمريكي النشأة، منذ منتصف التسعينيات عندما ترك والديه المقيمين في كالفورنيا وانتقل للعمل في هوليود وهو في سن التاسعة عشرة، حيث لم يكن يرفض الأدوار التي تدور حول الإرهاب والعنف والتخلف، إلى أن سئم من تقديم دور مسلح عربي أو سائق سيارة أجرة، حسب قوله، فتحول إلى الكوميديا ليتحكم في المادة التي يقدمها.

يقول في أحد عروضه: «لقد توقفت عن التمثيل منذ مدة طويلة ودخلت عالم الكوميديا، ففي عالم التمثيل هناك العديد من الصور النمطية، لذا كنت دائماً أحصل على دور الإرهابي. تصوروا أنني قمت بدور الإرهابي في فيلم قديم يتحدث عن مجموعة من إرهابيين يقومون بخطف طائرة، تصوروا أن مديرة أعمالي اتصلت بي وقالت: إنه يجب أن أحاول القيام بالدور رقم أربعة، فسألتها: ما هو الدور أربعة؟ فقالت: الدور هو الإرهابي (رقم أربعة) لأن أدوار رقم واحد، اثنين، وثلاثة حاز عليها ممثل أسود وشاذ ويهودي تباعاً، فذهبت للقاء المخرج وفريق العمل وأديت الدور بشكل مبالغ فيه لأني أردت أن أسخر منه، فأعجب المخرج بأدائي وطلب مني القيام به مرة أخرى، "اجلس سوف تعطيني وإلا سأقتلك".. فقال المخرج: عظيم هذا بالضبط ما كنت أبحث عنه، أريد أن تؤديه مرة أخرى لكن هذه المرة أريد منك أن تتقمص الروح الشرق أوسطية.. أرني تلك القدرة الكائنة في شعبك، فسألته: أتقصد الغضب؟ فقال: بالضبط استعمل ذلك الغضب الذي يتميز به شعبك، فاستعملت هذا الغضب الذي يتميز به شعبي وحصلت على الدور، ثم اتصلت بي مديرة أعمالي وأخبرتني بالأمر، فقلت لها: إنني لم أكن أحاول أن أحصل على الدور بل كنت أسخر منه، فقالت لي: ما فعلته كان ناجحاً، وقد حصلت على الدور، فقلت لها: أبلغيهم شكري وأني سأرفض هذا

الدور ففي كل مرة أقوم به أشعر بأني أغذي وحش الصور النمطية، ولن أفعل ذلك بعد اليوم، فقالت لي: سوف يدفعون لك ثلاثين ألف دولار أسبوعياً مقابل هذا الدور».. وهنا يصمت أحمد وعلى وجهه ملامح الحيرة، ويضحك الجمهور!

أمام هذا الموقف نتساءل: ما جدوى محاربة الصور النمطية بإطلاق النكات الساخرة أمام ما لا يزيد على ألفي مشاهد في قاعة المسرح، في الوقت الذي يقوم فيه الكوميدي نفسه بتكريس الصورة النمطية نفسها في فيلم سينمائي يشاهده الملايين حول العالم وعلى مدى سنوات عديدة؟ خصوصاً إذا علمنا أن أحمد لم يضطر إلى المشاركة في تلك الأفلام المسيئة للمسلمين في بداية مشواره ليتوقف عندها بعد تحقيق قدر من الشهرة كما يفعل البعض، بل عاد إلى الظهور في الأفلام التي تغذي **وحش الصور النمطية**، ومنها الفيلم الكوميدي (**ترنيمة أمريكية** / American Carol) (**٢٠٠٨**)، والذي لم يفوّت مخرجه اليهودي (ديفيد زَكر) أي فرصة فيه لشيطنة المسلمين وتمجيد الجيش الأمريكي الحامي الأول للحرية، وإلى درجة من المبالغة قد لا يصل إليها أي فيلم تفكر البنتاغون في إنتاجه. وفي السنة نفسها ظهر (أحمد أحمد) بصحبة (ميسون زايد) في فيلم (**لا تعبث مع زوهان**)، وهو أيضاً من أكثر الأفلام تحقيراً للمسلمين تحت ذريعة التقريب والتطبيع مع اليهود في أمريكا. ولعل هذه الأدوار تبرر الفرص التي قُدمت لأحمد في الإعلام الأمريكي، فقد ظهر في قنوات تلفزيونية عديدة مثل (MTV)، (PBS)، (ABC) و(Central Comedy)، كما حصل على جائزة الكوميدي (ريتشارد بريور) للأقليات العرقية عام **٢٠٠٤**. ولكن هذه الشهرة لم تقنع نقاده من الأقلية المسلمة الذين وجدوا في نكاته عبئاً إضافياً هم في غنى عنه، ففي إحدى نكاته يتحدث عن علاقاته مع العديد من أصدقائه اليهود في لوس أنجلوس، وبعد أن يسرد نقاط التشابه في الالتزامات الدينية

بين المسلمين واليهود، يقول: إن بينهما فرقاً واحداً، فاليهود لا ينفقون الكثير من المال لأنهم متمسكون به، أما المسلمون فلا ينفقونه لأنهم لا يملكونه أصلاً!

من المسرح إلى الشاشة

بعد نجاح الكوميديا (الشرق أوسطية) على المسارح وفي النوادي الأمريكية والبريطانية أصبح من الممكن نقل هذه التجربة إلى التلفزيون والسينما، للوصول إلى عدد أكبر من الجمهور، ويبدو أن التجربة لم تختلف في محاسنها ومساوئها عن مثيلتها في الكوميديا الإلقائية.

المخرجة والمنتجة الشابة الكندية من أصل باكستاني **زرقاء نواز** كانت تعمل بجد منذ منتصف التسعينيات قبل أن تحقق شهرتها العالمية اليوم عبر أنجح مسلسل كوميدي عن المسلمين في الغرب، فبعد فيلمَيْها القصيرين **(حفلة شواء لدى المسلمين)** (١٩٩٦) و**(تهديد بالقتل)** (١٩٩٨) نجحت نواز في إقناع هيئة الإذاعة الكندية (CBC) بإنتاج أول ثماني حلقات من مسلسلها **(مسجد صغير بين المروج)** (٢٠٠٧)، وكانت الفكرة تدور حول مشاكل جالية مسلمة صغيرة تحاول الاندماج في وسطها البروتستانتي في قرية وهمية غرب كندا، بدءاً من تأسيس مسجد صغير مروراً بكل ما يتعلق بالاختلافات الثقافية والدينية؛ كالحجاب وتهم الإرهاب، وجاءت المفاجأة مع استقطاب نحو مليوني مشاهد -وهو رقم جيد في كندا- مع بث الحلقة الأولى في مطلع عام ٢٠٠٧، ثم الحصول على ثلاث جوائز محلية وعالمية لتتابع نواز كتابة نصوص أربعة مواسم سنوية حتى عام ٢٠١٠.

ومع أن نواز نجحت في دفع المشاهد الكندي لإعادة النظر في الكثير من المسلمات والصور النمطية المسيئة، فمن المؤسف أيضاً أن نجاحها

لم يأت على طبق من ذهب، فهي لا تسخر من العنصرية تجاه المسلمين فحسب، بل تمتد -كما هو الحال لدى كوميديين آخرين سبق ذكرهم- لتشمل المسلمين أنفسهم وبطريقة لا تخلو أحياناً من الإيذاء والتجني، وهي نتيجة متوقعة إزاء خوضها طريقاً وعراً وشائكاً للوصول إلى هدفها الصعب في تحقيق الاندماج، وتنبع هذه المشكلة -في رأيي- من صعوبة الوقوف على رؤية موفقة للاندماج وعلى نحو يحقق رضا المسلمين والغربيين على حد سواء، لذا تجمع نواز في بعض حلقاتها بين مواقف متباينة يصعب على المسلم العارف بدينه التساهل معها تحت أي مبرر، كأن يرفض شيخ ملتحٍ عرضاً راقصاً محتشماً لدوافع شرعية معروفة، ثم يضطر لحضوره بل مباركته تحت ضغط ابنته غير المحجبة عندما تواجهه بتسجيل سري يظهر فيه وهو يراقص بعض النساء في أحد الأعراس، وتواجه نواز ازدواجية العقلية المسلمة في الغرب عندما يصارع هذا الشيخ الباكستاني رغباته في النظر إلى الراقصة على المسرح، وبين إغلاق عينه وفتحها أمام سخرية ابنته الشابة المتزنة وغير المحجبة. تترك نواز المشاهد العربي المغترب في حيرة أمام مطالبته بالجمع بين التزام ديني مفعم بالثقة واندماج لا يخلو من المخالفة الشرعية، لتبرز في النهاية ضحالة المعرفة الدينية لدى نواز وغلبة العنصر الغربي على مفهومها للاندماج المفضي إلى التمييع.

على الجانب البريطاني المقابل؛ ولتحقيق الأهداف ذاتها من اندماج للمسلمين وكسر للصور النمطية، وبعقل أكثر تفتحاً من عنصرية (آدم ساندلر)؛ كاتب فيلم (**لا تعبث مع زوهان**) وبطله، وضع الكاتب اليهودي "ديفيد باديل" نصاً كوميدياً لفيلم (**الكافر**) (٢٠١٠) محاولاً من خلاله أيضاً التقريب بين اليهود والمسلمين عبر الكوميديا والمواقف الساخرة، ولكن في بريطانيا هذه المرة، وشارك في إنتاج الفيلم عدد لا بأس به من المسلمين وعلى رأسهم المنتجة الشابة (**أسماء حسن**).

يدور الفيلم حول قصة (محمود ناصر)؛ الممثل من أصل إيراني **أوميد جليلي**، الذي يكتشف في وقت متأخر أنه وُلد لعائلة يهودية قبل أن تتبناه عائلة مسلمة، فيبدأ البحث عن إرثه اليهودي عبر سلسلة من المفارقات التي أراد الفيلم أن يسخر بها من التعصب لدى المسلمين واليهود. ومع أن الصحافة في الشرق والغرب احتفت بالفيلم -وسبق أن أثنينا على بعض حسناته في فصل سابق- فمن نافلة القول الإشارة إلى أن فيلماً كهذا لا بد أن ينتهي إلى تجريد القضية من أبعادها التاريخية، ثم تجريد الإسلام نفسه -بما هو دين ناسخ لكل ما قبله- من جوهره، ليقدم لنا الحل على طبق علماني بحت، وبعيداً عن كل ما يمت إلى الدين بصلة ما بقي التدين قريناً للتزمت، والمفضي بدوره إلى الانغلاق والإرهاب!

هل سيحقق الكوميديون المسلمون أهدافهم في الغرب؟

بناء على تصريحات الكوميديين المسلمين أنفسهم فإن أهدافهم تتراوح بين تصحيح الصور النمطية للأقليات العربية والمسلمة في دول الغرب من جهة، وإصلاح أخطاء هذه الأقليات لمساعدتها على الاندماج بالمجتمعات الغربية من جهة أخرى. وللتحقق من إمكانية نجاح هذه المحاولة؛ نسترجع بعض التجارب المماثلة التي سبق إليها الكوميديون من أقليات أخرى.

لقد عانى اليهود طويلاً من الصورة النمطية المسيئة إليهم في أوربا ثم في أمريكا، والتي تحصرهم في خانة الضعفاء، الهامشيين، البخلاء، وعديمي الضمير والذمة. وترسخت هذه الصور في الثقافة الغربية مع النظر إلى اليهود لقرون طويلة بوصفهم أقليات منبوذة تحمل على ظهرها وزر صلب المسيح -عليه الصلاة والسلام- وتُسند إليها المهن الوضيعة التي يترفع عنها الأوربي المسيحي مثل الإقراض بالربا والبغاء. ولما كان المسرح يركز منذ عصر اليونان على الأقليات والمجموعات الهامشية

عرقياً ومهنياً وطبقياً فقد عانى اليهود في أوربا السخرية والإدانة في العديد من المسرحيات الشهيرة، ونذكر منها (**تاجر البندقية**) لشكسبير و(**يهودي مالطة**) لكريستوفر مارلو.

مع ذلك لم تبق هذه الصور النمطية إلى الأبد، فمع التحول الرأسمالي في القرن السادس عشر وتصاعد قوة (البورجوازية) التي منحت لكل من يملك المال والقدرة حقَّ المشاركة في المجتمع؛ بدأ اليهود بالخروج من قوقعتهم والاندماج في المجتمع وامتهان التجارة والصناعة، ورافق هذا التحول تحسن صورة اليهود في الأدب الإنجليزي في القرن التاسع عشر.

وفي مطلع القرن العشرين، أصبحت الولايات المتحدة الوجهة المفضلة للمهاجرين اليهود من شرق أوربا وروسيا القيصرية، حيث وجد اليهود في أرض الأحلام مكاناً مناسباً ليمارسوا دورهم في المجتمع بحرية أكبر مع سيادة الروح الرأسمالية والقيم الديمقراطية، وتمكن أثرياؤهم من الاستثمار في شركات وأعمال ضخمة ساعدت على ترسيخ مكانتهم في المجتمع، بينما وجد عامة اليهود فرصاً جيدة للعمل في السينما التي كانت تبشر بولادة صناعة جديدة مدرة للربح وذات قدرة أكبر على التأثير في الرأي العام من الأدب والمسرح، ولما كانت مهنة التمثيل في نظر الأوربيين مهنة وضيعة، لم يجد اليهود أي صعوبة في ملء هذا الفراغ بعد أن اعتادوا على العمل في مثل تلك المهن.

وهكذا لمعت أسماء الممثلين اليهود في هوليود مثل (الإخوة ماركس) و(ماكس ليندر) و(آل جولسون)، وكانت لهم السيطرة التامة إلى درجة أنهم قاموا بجميع الأدوار المطلوبة حتى أدوار الزنوج السود، كما استغلوا العاطفة الدينية البروتستانتية لدى الشعب الأمريكي وقدموا له أعمالاً دينية تناسب ميوله انطلاقاً من التوراة؛ مثل فيلمي (حِكَم سليمان) و(الوصايا العشر).

أما المجال الأهم الذي برعوا فيه فهو الكوميديا، والذي مهّد لهم طريق الاندماج بقوة في المجتمع، فنجحوا في القيام بالأدوار التي تدور حول الصور النمطية لليهود مع الكثير من السخرية مثل المصرفي البخيل، رجل الأعمال الفاشل، الرومانسي الحالم، والرجل المتزمت الحازم، حيث مهّدت هذه الأعمال الكوميدية سواء في المسرح أو السينما للتعامل مع تلك الصور النمطية على أرض الواقع بشيء من السخرية.

ومع مرور الوقت، أصبحت هوليود في قبضة اليهود، وصار لهم الحق في عرض الصورة التي يريدونها عن أنفسهم، كما أن اندماجهم في المجتمع الأمريكي قلّص الكثير من الفروق التي كانت موجودة في أوربا، حتى أصبح اليهودي كأي مواطن أمريكي عادي سواء من الطبقتين الوسطى أو الثرية، وظهرت الشخصيات اليهودية من كلتا الطبقتين في السينما الأمريكية مع التركيز على أن اليهود هم أمريكيون عاديون ويحملون تاريخاً عريقاً يفخرون به. وتزامنت هذه التحولات مع تطابق المصالح السياسية بين الصهيونية والغرب عموماً، فزُرعت دولة لليهود في الوسط العربي- الإسلامي ليقوموا بدور الجماعة الوظيفية كما كانوا دوماً على مر التاريخ، وهو دور المبرر الشرعي لتدخل الغرب في شؤون المنطقة، كما ساعدت الدعاية الصهيونية على تحويل ما جرى في ألمانيا النازية من اضطهاد لليهود إلى وسيلة لابتزاز العالم وإظهار هذا الشعب في دور الضحية التي تستحق الشفقة، وهي الدعاية نفسها التي استصدرت من الفاتيكان القرار التاريخي ببراءة اليهود من دم المسيح.

هذه العوامل كلها ساعدت على تغيير النظرة العامة تجاه اليهود، وإمكانية تقبل وجودهم في المجتمع الغربي، ويضاف إليها عامل الحرص البروتستانتي، وهو المذهب الأكثر انتشاراً في الولايات المتحدة ومعظم دول أوربا الغربية، على حشد اليهود في أرض الميعاد (فلسطين) لتعجيل

موعد عودة المسيح، ومن ثم إبادة كل من اليهود والمسلمين وإقامة مملكة العدل على هذه الأرض، مما يعني مساندتهم مادياً وسياسياً لإنشاء دولتهم والامتناع عن اضطهادهم إلى أن يأتي دور المسيح في القضاء عليهم!

في ظل هذه التطورات السياسية والاجتماعية، أصبح من الممكن للكوميديين اليهود أن يسخروا من أنفسهم في هوليود دون أن يخشوا تبعات هذه السخرية، فقد أصبحوا جزءاً لا يتجزأ من نسيج المجتمع الغربي، والأمريكي تحديداً. لذا برع كل من (وودي آلان) و(ميل بروكس) في تقديم النكات وصناعة الأفلام الكوميدية ذات السخرية اللاذعة من اليهود خلال السبعينيات والثمانينيات، أما اليوم فلم نعد نرى أثراً يذكر لهذا النوع من الكوميديا، حيث لم يعد من الضروري لليهود الحديث عن هذه المرحلة من تاريخهم بعد أن أصبحت لهم اليد الطولى في كل من السياسة والاقتصاد والإعلام في الولايات المتحدة، بل أصبحت السخرية منهم إحدى المحرمات التي يعاقب عليها القانون.

أما التجربة الأخرى المهمة لما يسمى بكوميديا الأقليات فهي تجربة الكوميديين السود، الذين اشتهروا في عقد الستينيات وما بعده بالتزامن مع تصاعد حركة الحقوق المدنية وتأييد الشعب الأمريكي لها من الأعراق والأحزاب السياسية كافة، إذ لم يعد استمرار التمييز العنصري ممكناً مع ثبوت عدم صحة وجود أي فروق في تطور الجنس البشري بين السود والبيض كما كان شائعاً، كما لم يعد ممكناً أيضاً تجاهل حقوقهم المدنية المشروعة التي تعد شرطاً لتحقيق مبادئ الديمقراطية والحرية والمساواة التي تقوم عليها الثقافة الأمريكية، علماً بأن السود لم يشكلوا يوماً حضارة تناهز حضارة الغرب، ولم يكن في تاريخهم ولا حاضرهم أي دور منافس لحضارة الغرب.

إزاء هذا الواقع لتطور قضايا كل من اليهود والسود وأوضاعهم، قد تبدو المقارنة مع وضع أقليات العرب والمسلمين ضرباً من الجهل بحقائق الأمور، فالمسلمون لم يكونوا يوماً مجرد أقلية تعيش في كنف الحضارة الغربية كاليهود الذين لا يزيد عددهم في العالم كله على اثني عشر مليوناً حسب بعض التقديرات، بل هم أمة تربو على المليار وربع المليار إنسان، ولديهم ثقافة وتاريخ وتشريع في غاية الرقي، وهي الثقافة الوحيدة التي تُقلق الغرب منذ نشأتها، بدءاً من الحروب الصليبية وصولاً إلى اعتماد نظرية صراع الحضارات في التعامل معها.

بناء على ذلك، قد تساعد الكوميديا السياسية التي يقدمها المسلمون والعرب اليوم في الولايات المتحدة على تخفيف بعض الاحتقان، وربما على إظهار المسلمين في صورة البشر العاديين الذين يحق لهم أن يضحكوا ويعيشوا كبقية الناس!، وفي حال استمرارها على نحو منظم وهادف فمن الممكن أن تمهد لإعادة النظر في الكثير من قضايا المسلمين وحقوقهم، ولكن قد تصبح هذه الكوميديا في الوقت نفسه أداة لتكريس الوضع القائم بدلاً من العكس، كما هو الحال في بعض الدول العربية التي تمنع كل أشكال المعارضة باستثناء الكوميديا السياسية الساخرة، التي تتحول مع الوقت إلى مجرد أداة لتنفيس الاحتقان، وربما إلى رسالة غير مباشرة مفادها: «اسخروا من أنفسكم، فلن تحصلوا منا إلا على الضحك والتصفيق»!.. وعندها فإن الرابح الوحيد في هذه اللعبة هم نجوم الكوميديا، حيث المال والشهرة والسجاد الأحمر ودفاتر التوقيع.. وربما أيضاً الظهور بمظهر المناضلين وأصحاب الرسالة، وأي رسالة؟!